

Reference	12958
Title	Nymphs of the Valley
Date(s)	1922 (CE, Gregorian)
Written in	Arabic in Arabic
Extent and Format	39 items
Holding Institution	Qatar National Library Heritage Collection
Copyright for document	Creative Commons Attribution Licence

About this record

‘Arā'is al-Murūj (Nymphs of the valley) is a collection of short stories by the celebrated Lebanese-American author and artist Gibran Khalil Gibran. Gibran was born in 1883 to a Maronite Catholic family in the village of Bsharri in the north of Lebanon. His family immigrated to the United States in 1895, where he began his formal schooling, studying English and art. He is best known in the West for his book The Prophet, which was completed in 1923 and subsequently translated into more than 40 languages. Gibran died in New York City in 1931; he was buried in Lebanon according to his wishes. The book consists of three stories: Ramād al-ajyāl wa al-nār al-khālida (The dust of ages and the eternal flame), Martā al-bāniya (Martha of Ban), and Yūḥanna al-majnūn (Yuhanna the mad). Nymphs of the Valley was translated into English by H.M. Nahmad in 1948, and it has been translated as well into Spanish, Persian, and other languages. The present copy is the second printing of the book, published by al-Hilāl in Cairo in 1922.



عرائس المروج

بقلم

جبران خليل جبران

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ – ١٩٢٢ م

يطلب من

مكتبة الهلال

بشارع الفجالة بمصر

(المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر)



عرائس المروج

بقلم

جبران خليل جبران

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م

يطلب من

مكتبة الهلال
بشارع الفجالة بمصر

(المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر)

رماد الاجيال والنار الخالدة

١

توطئة

(في خريف سنة ١١٦ قبل الميلاد)

سكن الليل ورقدت الحياة في مدينة الشمس [1] وطفئت السرُج في المنازل المنتثرة حول الهيا كل العظيمة القائمة بين اشجار الزيتون والغار ، وطلع القمر فانسكبت أشعته على بياض الاعمدة الرخامية المنتصبة كالجبابرة تخفر في هدوء الليل مذابح الالهة ، وتنظر تيهاً وأعجاباً نحو بروج لبنان الجالسة فى الوعر على جبهات الروابي البعيدة

---

(١) هي بعلبك أى مدينة بعل إله الشمس وقد دعاها الاقدمون مدينة الشمس (هليوبوليس) لانها بنيت لعبادة هذا الاله . وقد اتفق المؤرخون على أنها كانت أجمل مدينة فى سوريا . أما الخرائب الباقية الى يومنا هذا فا كثرها من بناء الرومانيين بعد فتحهم سوريا



في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء ، الموحدة بين أرواح النيام وأحلام اللانهاية ، جاء ناثان بن الكاهن ودخل هيكل عشتروت [١] حاملا مشعالا وبيد مرتجفة أنار المسارج وأوقد المباخر فتصاعدت روائح المر واللبان ، ووشحت تمثال المعبودة بنقاب لطيف يشابه برقع الاماني المحيط بالقلب البشري ، ثم ركع أمام المذبح المصفح برقوق العاج والذهب ، ورفع يديه ونظر نحو العلاء ومن عينيه الدموع تستدر الدموع ، وبصوت تخفضه الغصات الاليمة وتقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلا : « رحماك يا عشتروت العظيمة — رحماك يا ربة الحب والجمال . ترأفي علي وأزيلي يد الموت عن حبيبتي التي اختارتها نفسى بمشيئتك . . لقد نبت أعاصير الاطباء ومساحيقهم ، وباطلا ضاعت تعازيم

(١) هي ربة عظيمة عند قدماء الفينيقيين عبدوها فى صور وصيدا وجبيل وبعلبك وبعض صفاتها قولهم : « موقدة شعلة الحياة وحارسة الشبيبة » وقد أخذ اليونان عبادتها عن الفينيقيين ودعوها أفروديت ربة الحب والجمال والرومان يدعونها فينيس

الكهان والعرافين ، ولم يبق لى غير اسمك المقدس عونا ومساعداً فاستجيبي تضرعاتى ، وانظرى انسحاق قلبي ، وتوجع عواطفي ، وابق شطر نفسى حيا بجانبي ، لنفرح باسرار محبتك ، ونسعد معاً بجمال الشبيبة المعلنة خفايا مجدك ، من هذه الاعماق اصرخ اليك ياعشتروت المقدسة . من وراء ظلمة هذا الليل استجير بحنانك فاسمعينى . أنا عبدك ناثان ابن الكاهن حيرام الذى وقف عمره على خدمة مذبحك — قد احببت صبية من بين الصبايا واتخذتها رفيقة فحسدتنا عرائس الجان وتنفثن فى جسدها اللطيف لهات علة غريبة ، ثم بعثن رسول المنايا ليقودها الى مغائرهن السحرية وها هو الآن رابض بقرب مضجعها ، بزمجر كالنمر الجائع ، مخيما عليها بأجنحته السوداء ، ماداً مقابضه الخشنة ليغتالها من بين ضلوعي [١] من أجل ذلك جئت اليك متذللا فارحميني وابقيها زهرة لم تفرح بعد بجمال

(١) كانت العرب فى الجاهلية تقول : ان الجنية إذا تعشقت فتى من الانس منعته من الزواج وان فعل سحرت عروسته أو أماتتها وهذه الاعتقادات الشعرية مابرحت حية فى بعض قرى لبنان



صيف الحياة ، وطائراً لم يكمل تغريدة مسرته لمجيء، فجر الشبيبة . انقذيها من بين أظافر الموت فنبتهج بأغاني مدائحك مقدمين المحرقات لمجد اسمك ، ناحرين الضحايا على مذبحك مالئين بالخمر القديم والزيت المطيب آنية خزائنك . فارشين بالورد والياسمين رواق هيكلك ، محرقين البخور والعود الذكي الرائحة أمام تمثالك . خلصيها يا ربة المعجزات ودعي المحبة تغلب الموت فأنت ربة الموت والمحبة .

وسكت دقيقة كانت فيها لوعته تسيل دموعاً وتتصاعد تنهيداً . ثم عاد فقال : « اواه لقد تضعضعت أحلامى يا عشتروت المقدسة وذابت حشاشتي ومات قلبي في داخلي والتهبت دموعي في عيني فاحييني بالرأفة وابق لي حبيبتي »

ودخل اذ ذاك عبد من عبيده واقترب منه ببطء وهمس في أذنه هذه الكلمات : لقد فتحت عينيها ياسيدي ونظرت حول مضجعها فلم ترك ثم نادتك بلجاجة فجئت لادعوك اليها»

فقام ناثان ومشى مسرعا والعبد يتبعه . ولما بلغ صرحه

دخل حجرة العليلة وانحنى فوق سريرها آخذاً يدها النحيلة بين يديه مقبلا شفتيها مراراً كانه يريد أن ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته ، فحولت نحوه وجهها الغارق بين المساند الحريرية ، وفتحت أجفانها قليلا ، وظهر على شفتيها خيال ابتسامة هي بقية الحياة في جسدها اللطيف ، هي آخر أشعة من نفسها المودعة ـ هي صدى نداء القلب المتسارع نحو الوقوف . ثم قالت ومقاطيع صوتها تشابه أنفاس طفل الفقيرة الجائع « قد نادتني الآلهة يا عريس نفسي ، وجاء الموت ليفصلني عنك ، فلا تجزع لأن مشيئة الآلهة مقدسة ومطاليب الموت عادلة . أنا ذاهبة الآن وكأسا الحب والشبيبة مابرحا طافحين في أيدينا ، ومسالك الحياة الجميلة مازالت منبسطة أمامنا . أنا راحلة ياحبيبي الى مسارح الارواح وسوف أعود الى هذا العالم لان عشتروت العظيمة ترجع الى هذه الحياة أرواح المحبين الذين ذهبوا الى الأبدية قبل أن يتمتعوا بملذات الحب وغبطة الشبيبة (١)

(١) قال نبي الاسلام (صلعم) : « وكنتم أمواتاً فأحيا كم ثم



سوف نلتقي ياناثان ونشرب معاً ندى الصباح من كؤوس النرجس ونفرح مع عصافير الحقل باشعة الشمس ، الى اللقاء ياحبيبي

وانخفض صوتها وبقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة اقاح ذابلة أمام نسيمات الفجر ، فضمها حبيبها وبلل عنقها بالعبرات ولما قرب شفتيه من ثغرها وجده بارداً كالثلج فصرخ صراخاً هائلا ومزق ثوبه وارتمى على جثتها الهامدة وروحه المتوجعة تتراوح بين لجج الحياة وهاوية الموت

في هدوء ذلك الليل ارتجفت أجفان الراقدين وجزعت نساء الحي وذعرت ارواح الاطفال اذ تبطنت ملابس الدجى بنواح موجع وبكاء مر وعويل أليم متصاعد من جوانب قصر كاهن عشتروت . ولما جاء الصباح طلب القوم ناثان ليعزوه ويؤاسوه في مصيبته فلم يجدوه . وبعد ايام جاءت

يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون » وقال بوذا الهندي « كنا بالامس في هذه الحياة وقد جئنا الآن وسوف نعود اليها حتى نصير كاملين مثل الآلهة »

قافلة من المشرق أخبر زعيمها بأنه رأى ناثان تائها في البرية البعيدة هائما مع أسراب الغزلان

***

مرت الأجيال ساحقة بأقدامها الخفية أعمال الاجيال وبعدت الآلهة عن البلاد وحل مكانها آلهة غضوب يلذ لها الهدم ويبهجها التخريب ، فدكت هيكل مدينة الشمس الفخمة ، وتقوضت قصورها الجميلة ، ويبست حدائقها النضرة ، وأجدبت حقولها الخصيبة . ولم يبق في تلك البقعة غير طلل بال يعيد للذكرى أشباح الأمس فيؤلمها ، ويرجع للنفس صدى تهاليل المجد القديم فيحزنها . ولكن الأجيال التي تمر وتسحق أعمال الانسان لا تفني أحلامه ، ولا تضعف عواطفه . فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد ، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبهة بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح . . .



٣

فى ربيع سنة ١٨٩٠ لمجيء يسوع الناصرى

توارى النهار واضمحل النور ولمت الشمس وشاحها عن سهول بعلبك فعاد علي الحسينى (١) امام قطيعة نحو خرائب الهيكل وهناك جلس بين الاعمدة الساقطة كأنها اضلع جندى متروك مزقتها الهيجاء وجردتها العناصر ، فربضت أغنامه حوله مستأمنة بانغام شبابته

انتصف الليل ، وألقت السماء بذور الغد فى أعماق ظلمته ، فتعبت أجفان علي من أشباح اليقظة . وكلت عاقلته من مرور مواكب الخيالات السائرة بسكينة مخيفة بين الجدران المهدومة ، فاتكأ على زنده ، فاقترب النعاس ولامس حواسه باطراف ثنايا نقابه مثلما يلامس الضباب اللطيف وجه البحيرة الهادئة ، فنسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنويه الخفيـة المفعمة بالاحلام المترفعة عن شرائع

(١) الحسينيون قبيلة من العرب تسكن الخيام فى سهول بعلبك فى أيامنا هذه

الانسان وتعاليمه ، واتسعت دوائر الرؤيا أمام عينيـه ، وانبسطت له خفايا الأسرار ، فانفردت نفسه عن موكب الزمن المتسارع نحو اللاشيء ، ووقفت وحدها أمام الافكار المتناسقة والخواطر المتسابقة ، ولأول مرة في حياته عرف أوكاد يعرف أسباب المجاعة الروحية الملاحقة شبيبته . تلك المجاعة التي توحد بين حلاوة الحياة ومرارتها . ذلك الظمأ الجامع بين تأوه الحنـين وسكينة الاستكفاء . ذلك الشوق الذي لا تزيله أمجاد العالم ولا تثنيه مجاري العـمر . لأول مرة في حياته شعر علي الحسيني بعاطفة غريبة أيقظتها خرائب الهياكل . عاطفة رقيقـة هي من الذكرى بمنزلة البخور من المجامر . عاطفة سحرية قد انعكفت على حواسه انعكاف أنامل الموسيقى على صفوف الأوتار . عاطفة جديدة قد انبثقت من اللاشيء ، أو من كل شيء ، ونمت وتدرجت حتى عانقت كليته المعنوية وملأت نفسـه بشغف مدنف بلطفه وتوجع مستعذب بمرارته مستطيب بقساوته ، عاطفة تولدت من خلايا دقيقة واحدة مفعمة بالنعاس ومن دقيقة واحدة



تتولد رسوم الأجيال مثلما تتناسل الأمم من نطفة واحدة

نظر علي نحو الهيكل المهدوم وقد تبدل النعاس بيقظة روحية فظهرت بقايا المذبح المخدشة واتضحت أماكن الاعمدة المرتمية وأسس الجدران المتداعية فجمدت عيناه وخفق قلبه، ومثل ضرير أعمى عاد النور الى عينيه فجأة فصار يرى ويفتكر ويتأمل — يفتكر ويتأمل — ومن تموجات التفكر ودوائر التأمل تولدت فى نفسه أشباح الذكرى فتذكر — تذكر تلك الاعمدة منتصبة بفخر وعظمة . تذكر المسارج والمباخر الفضية محيطة بتمثال معبودة مهابة . تذكر الكهان الوقورين يقدمون الضحايا أمام مذبح مصفح بالعاج والذهب . تذكر الصبايا الضاربات الدفوف والفتيان المترنمين بمدائح ربة الحب والجمال. تذكر ورأى هذه الصور متضحة لبصيرته المتكهربة وشعر بتأثيرات غوامضها تحرك سواكن أعماقه . ولكن الذكرى لا تعيد غير أشباح الأجسام التي نراها فيما غبر من أعمارنا ولا ترجع الى مسامعنا الاصدى الأصوات التي وعتها آذاننا ، فأية علاقة بين هذه التذكارات السحرية وماضي

حياة فتى ولد بين المضارب وصرف ربيع عمره يرعى قطيعاً من الغنم في البرية ؟

قام علي ومشى بين الحجارة المتقوضة وتذكاراته البعيدة تزيح أغشية النسيان عن مخيلته مثلما تزيل الصبية نسيج العنكبوت عن بلور مرآتها . حتى إذا ما بلغ صدر الهيكل وقف كأن فى الارض جاذباً يتمسك باقدامه فنظر وإذا به أمام تمثال مهشم ملقى على الحضيض فركع بجانبه على غير هدى وعواطفه تتدفق فى أحشائه مثلما يتسارع نزيف الدماء من جوانب الكلوم البليغة ، ونضبات قلبه تتكاثر وتتهامل مثل أمواج البحر المتصاعدة المنخفضة. نخشع بصره وتأوه بمرارة وبكى بكاء أليماً لأنه شعر بوحدة جارحة وبعاد متلف فاصل بين روحه وروح جميلة كانت بقربه قبل مجيئه الى هذه الحياة. شعر بان جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل ابتداء الدهر . شعر بحفيف اجنحة لطيفة ترفرف بين اضلعه الملتهبة وحول لفائف دماغه المنحلة شعر بالحب القوي العظيم يشمل قلبه ويمتلك انفاسه .. ذلك



الحب الذى يبيح مكنونات النفس للنفس ويفصل بتفاعيله بين العقل وعالم المقاييس والكمية . ذلك الحب الذي نسمعه متكلما عند ماتخرس ألسنة الحياة ونراه منتصباً كعمود النور عند ماتحجب الظلمة كل الاشياء . ذلك الحب ، ذلك الاله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس علي الحسينى وأيقظ فيها عواطف حلوة ومرة مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الاشواك .

ولكن ماهذا الحب ، ومن أين أتى ، وماذا يريد من فتى رابض مع قطيعه بين تلك الهيا كل الرميمة ؟ ما هذه الخمرة السائلة فى كبد لم تحركه قط لواحظ الصبايا . وما هذه الاغنية السماوية المتموجة فى مسامع بدوي لم يطربه بعد شدو النساء ؟

ماهذا الحب ومن أين أتى وماذا يريد من علي المشغول عن العالم باغنامه وشبابته ؟ هل هى نواة القتها محاسن بدوية بين أعشار قلبه على غير معرفة من حواسه ، أم هو شعاع كان محتجباً بالضباب وقد ظهر الآن لينير خلايا نفسه ؟ هل

هو حلم سعى في سكينة الليل ليسخر بعواطفه ، أم هي حقيقة كانت منذ الأزل وستبقى الى آخر الدهر »

اغمض علي أجفانه المغلقة بالدموع ومد يديه كالمتسول المستعطف وارتعشت روحه فى داخله ومن ارتعاشاتها المتواصلة انبثقت الزفرات المتقطعة المؤلفة بين تذلل الشكوى وحرقة الشوق ، وبصوت لايميزه عن التنهد غير رنات الالفاظ الضعيفة هتف قائلا :

« من أنتِ أيتها القريبة من قلبي ، البعيدة عن ناظري ، الفاصلة بيني وبينى . الموثقة حاضري بأزمنة بعيدة منسية ، أطيف حورية جاءت من عالم الخلود ليبين لي بطل الحياة وضعف البشر أم روح مليكة الجان تصاعدت من شقوق الارض لتسترق منى عاقلتي وتجعلنى سخرية بين فتيان عشيرتي ؟ من أنتِ وما هذا الفتون المميت المحيي القابض على قلبي . وما هذه الشواعر المالئة جوانحي نوراً وناراً ؟ ومن أنا وما هذه الذات الجديدة التي ادعوها « انا » وهي غريبة عني ؟ هل تجرعت ماء الحياة مع دقائق الاثير فصرت ملاكا



أرى واسمع خفايا الأسرار أم هي خمرة وساوس سكرت بها فتعاميت عن حقائق المعقولات »

وسكت دقيقة وقد نمت عواطفه وتسامت روحه فقال :

« يامن تبينها النفس وتدنيها ، ويحجبها الليل ويقصيها ، — أيتها الروح الجميلة الحائمة فى فضاء أحلامي ، قد أيقظتِ فى باطنى عواطف كانت نائمة مثل بذور الزهور المختبئة تحت أطباق الثلج ، ومررتِ كالنسيم الحامل أنفاس الحقول ولامست حواسى فاهتزت واضطربت كاوراق الاشجار ، دعيني أراكِ ان كنت لابسة من المادة ثوبا . أومري النوم أن يغمض أجفاني فأراك بالمنام ان كنت معتوقة من التراب . دعيني ألمسكِ . اسمعيني صوتك . مزقي هذا النقاب الحاجب كليتي واهدمي هذا البناء الساتر الوهيتي وهبيني جناحاً فأطير وراءك الى مسارح الملإ الاعلى ان كنت من سكانها أو لامسي عيني بالسحر فاتبعك الى مكامن الجان ان كنت من عرائسها ، ضعي يدك الخفية على قلبي وامتلكيني ان كنت حرياً باتباعك »

كان علي يهمس في آذان الدجى كلماته المتناسخة عن صدى نغمة متمايلة في أعماق صدره وبين ناظره ومحيطه تنسل أشباح الليل كأنها أبخرة متولدة من مدامعه السخينة وعلى جدران الهيا كل تتمثل له صور سحرية بألوان قوس القزح

كذا مرت ساعة وهو فرح بدموعه ، مغبوط بلوعته ، سامع نبضات قلبه ، ناظر إلى ماوراء الأشياء كانه يرى رسوم هذه الحياة تضمحل ببطء ويحل مكانها حلم غريب بمحاسنه هائل بهواجسه ، ومثل نبي يتأمل بنجوم السماء مترقباً هبوط الوحي صار ينتظر مآتي الدقائق وتنهيدته المسرعة توقف أنفاسه الهادئة ونفسه تتركه وتسبح حوله ثم تعود إليه كانها تبحث بين تلك الخرائب عن ضائع عزيز

* * *

لاح الفجر وارتجفت السكينة لمرور نسيماته ، وسال النور البنفسجي بين دقائق الأثير ، وابتسم الفضاء ابتسامة



نائم لاح له في الحلم طيف حبيبته ، فظهرت العصافير من شقوق جدران الخرائب ، وصارت تنتقل بين تلك الأعمدة وتترنم وتتناجى متنبئة بمأتى النهار ، فانتصب عليّ واضعاً يده على جبهته الملتهبة ونظر حوله بطرف جامد ، ومثل آدم عند مافتحت عينيه نفخه الله صار ينظر مستغرباً كل مايراه. ثم اقترب من نعاجه وناداها فقامت وانتفضت ومشت وراءه بهدوء نحو المروج الخضراء

سار علي أمام قطيعه وعيناه الكبيرتان محدقتان بالفضاء الصافي وعواطفه المنصرفة عن المحسوسات تبين له غوامض الوجود ومستتراته ، وتريه ما غبر من الاجيال وما بقي منها بلمحة واحدة ، وبلمحة واحدة تنسيه كل ذلك وتعيد إليه الشوق والحنين ، فيجد ذاته منحجباً عن روح روحه انحجاب العين عن النور ، فيتنهد ومع كل تنهيدة تنسلخ شعلة من فؤاده المتقد

بلغ الجدول المذيع بخريره سرائر الحقول فجلس على ضفته تحت أغصان الصفصاف المتدلية إلى المياه كأنها تروم

امتصاص عذوبتها ، وانثنت نعاجه ترتعي الاعشاب وندى الصباح يتلمع على بياض صوفها ، ولم تمر دقيقة حتى شعر بتسارع نبضات قلبه وتضاعف اهتزازات روحه ومثل راقد أجفلته أشعة الشمس تحرك وتلفت حوله فرأى صبية قد ظهرت من بين الأشجار تحمل جرة على كتفها وتتقدم على مهل نحو الغدير وقد بلل الندى أقدامها العاريتين . ولما بلغت حافة الجدول وانحنت لتملأ جرتها التفتت نحو الحافة المقابلة فالتقت عيناها بعيني علي فشهقت ورمت بالجرة ثم تراجعت قليلاً إلى الوراء وشخصت به شخوص ضائع وجد من يعرفه ... مرت دقيقة كانت ثوانيها مثل مصابيح تهدي قلبيهما إلى قلبيهما ، مبتدعة من السكينة انغاماً غريبة تعيد إلى نفسيهما صدى تذكارات مبهمة وتبين الواحد منهما للآخر في غير ذلك المكان محاطاً بصور وأشباح بعيدة عن ذلك الجدول وتلك الاشجار ، فكان كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة الاستعطاف ويتفرسه مستنطفاً ملامحه مصغياً لتنهيداته بكل مافي عواطفه من المسامع ، مناجياً إياه بكل مافى نفسه



من الألسنة ، حتى إذا ماتم التفاهم وتكامل التعارف بين الروحين عبر علي الجدول مجذوباً بقوة خفية واقترب من الصبية وعانقها وقبل شفتيها وقبل عنقها وقبل عينيها فلم تبد حراكا بين ذراعيه كأن لذة العناق قد انتزعت منها إرادتها ، ورقة الملامسة قد أخذت منها قواها فاستسلمت استسلام أنفاس الياسمين لتموجات الهواء ، وألقت رأسها على صدره كمتعوب وجد راحة وتنهدت تنهيدة عميقة تشير إلى حدوث انبساط في فؤاد منقبض وتعلن ثورات جوانح كانت راقدة فأفاقت ، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى عينيه نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة لغة الارواح ـ نظرة من لا يرضى بأن يكون الحب روحاً في أجساد من الالفاظ

مشى الحبيبان بين أشجار الصفصاف ووحدانية كليهما لسان ناطق بتوحيدهما ، ومسمع منصت لوحي المحبة ، وعين مبصرة مجد السعادة ، تتبعهما الخراف مرتعية رؤوس الاعشاب والزهور ، وتقابلهما العصافير من كل ناحية مرتلة أغاني السحر

ولما بلغا طرف الوادي وكانت الشمس قد طلعت وألقت على تلك الروابي رداء مذهباً جلسا بقرب صخرة يحتمي البنفسج بظلها ، وبعد هنيهة نظرت الصبية في سوادعيني علي وقد تلاعب النسيم بشعرها كأن النسيم شفاه خفية تروم تقبيلها ، وشعرت بأنامل سحرية تداعب لسانها وشفتيها أسر إرادتها ، فقالت وفي صوتها حلاوة جارحة :

« قد أعادت عشتروت روحينا إلى هذه الحياة كيلا نحترم ملذات الحب ومجد الشبيبة ياحبيبي »

فاغمض علي أجفانه وقد استحضرت موسيقى كلماتها رسوم حلم طالماراه في نومه وشعر بأجنحة غير منظورة قد حملته من ذلك المكان وأوقفته في حجرة غريبة الشكل بجانب سرير ملقى عليه جسمان امرأة جميلة أخذ الموت بهاءها وحرارة شفتيها فصرخ ملتاعاً من هول المشهد ثم فتح أجفانه فوجد تلك الصبية جالسة بجانبه وعلى شفتيها ابتسامة محبة وفي لحظها أشعة الحياة فأشرق وجهه



وانتعشت روحه وتضعضعت خيالات رؤياه ونسي الماضي ومآتيه ...

تعانق الحبيبان وشربا من خمرة القبل حتى سكرا

ونام كل منهما ملتفاً بذراعي الآخر إلى أن مال الظل وأيقظتها حرارة الشمس

« تمت »

مرتا البانية (١)

١

مات والدها وهي في المهد ، وماتت أمها قبل بلوغها العاشرة ، فتركت يتيمة فى بيت جار فقير يعيش مع رفيقته وصغاره من بذور الارض وثمارها فى تلك المزرعة المنفردة بين أودية لبنان الجميلة

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين أشجار الجوز والحور ، وماتت أمها ولم تترك لها سوى دموع الأسى وذل التيتم ، فباتت غريبة في أرض مولدها ، وحيدة بين تلك الصخور العالية والاشجار المحتبكة ، وكانت تسير فى كل صباح عارية الاقدام رثة الثوب وراء بقرة حلوب إلى طرف الوادي حيث المرعى الخصيب وتجلس بظل الأغصان مترنمة مع العصافير ، باكية مع الجدول ، حاسدة البقرة على

(١) نسبة الى بان وهى قرية جميلة فى شمال لبنان



وفرة المآكل ، متأملة بنمو الزهور ورفرفة الفراش . وعندما يغيب الشمس ويضنيها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ وتجلس مع صبية وليها ملتهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار المجففة والبقول المغموسة بالخل والزيت ، ثم تفترش القش اليابس مسندة رأسها بساعديها وتنام متنهدة متمنية لو كانت الحياة كلها نوماً عميقاً لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة . وعند مجيء الفجر ينتهرها وليها لقضاء حاجة فتهب من رقادها مرتعدة خائفة من سخطه وتعنيفه

كذا مرت الاعوام على مرتا المسكينة بين تلك الروابي والأودية البعيدة فكانت تنمو بنمو الأنصاب وتتولد في قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولد العطر في أعماق الزهرة ، وتنتابها الأحلام والهواجس مثلما تتناوب القطعان مجاري المياه ، فصارت صبية ذات فكرة تشابه تربة جيدة عذراء لم تلق بها المعرفة بذوراً ولا مشت عليها أقدام الاختبار ، وذات نفس كبيرة طاهرة منفية بحكم القدر إلى تلك المزرعة حيث تتقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظل

إله غير معروف جالس بين الأرض والشمس

نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الآهلة نكاد لا نعرف شيئاً عن معيشة سكان القرى والمزارع المنزوية في لبنان قد سرنا مع تيار المدنية الحديثة حتى نسينا أو تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة ، تلك الحياة التي إذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع مثقلة في الصيف ، مستغلة في الخريف ، مرتاحة في الشتاء متشبهة بأمنا الطبيعة في كل أدوارها ، نحن أكثر من القرويين مالا وهم أشرف منا نفوساً ، نحن نزرع كثيراً ولا نحصد شيئاً ، أما هم فيحصدون مايزرعون ، نحن عبيد مطامعنا ، وهم أبناء قناعتهم ، نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والخوف والملل وهم يرتشفونه صافياً ...

بلغت مرتا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة تعكس محاسن الحقول وقلبها شبيهاً بخلايا الوادي يرجع صدى كل الاصوات . . . في يوم من أيام الخريف المملوءة بتأوه الطبيعة جلست بقرب العين المنعتقة من أسر



الأرض انعتاق الأفكار من مخيلة الشاعر تتأمل باضطراب أوراق الأشجار المصفرة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر ، ثم تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت ويبست قلوبها حتى تشققت وأصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلى أيام الثورات والحروب

وبينما هي تنظر إلى الزهور والاشجار ، وتشعر معها بالم فراق الصيف سمعت وقع حوافر على حصباء الوادي فالتفتت واذا بفارس يتقدم نحوها ببطء. ولما اقترب من العين وقد دلت ملامحه وملابسه على ترف وكياسة ، ترجل عن ظهر جواده وحياها بلطف ما تعودته من رجل قط ، ثم سألها قائلا : « قد تهت عن الطريق المؤدية إلى الساحل فهل لك أن تهديني أيتها الفتاة » فأجابت وقد وقفت منتصبة كالغصن على حافة العين : « لست أدري ياسيدي ولكني اذهب وأسأل وليي فهو يعلم » قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد اكسبها الحياء جمالا ورقة : وإذ همت بالذهاب أوقفها الرجل

وقد سرت في عروقه حمرة الشبيبة وتغيرت نظراته وقال : « لا لاتذهبي » فوقفت في مكانها مستغربة شاعرة بوجود قوة في صوته تمنعها عن الحراك . ولما اختلست من الحياء نظرة إليه رأته يتأمل بها باهتمام لم تفقه له معنى ، ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته ، وينظر بمودة وميل إلى أقدامها العاريتين ومعصميها الجميلين وعنقها الاملس وشعرها الكثيف الناعم ، ويتأمل بافتتان وشغف كيف قد لوحت الشمس بشرتها وقوت الطبيعة ساعديها ، أما هي فكانت مطرقة خجلا لاتريد الانصراف ولا تقوى على الكلام لاسباب لاتعرف مفادها

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها إلى الحظيرة ، أما مرتا فلم ترجع ، ولما عاد وليها من الحقل بحث عنها بين تلك الوهاد ولم يجدها . فكان يناديها باسمها ولا يجيبه غير الكهوف وتأوه الهواء بين الاشجار ، فرجع مكتئبا الى كوخه وأخبر زوجته فبكت بسكينة طول ذلك الليل وكانت تقول فى سرها « قد رأيتها مرة فى الحلم بين أظافر



وحش كاسر يمزق جسدها وهي تبتسم وتبكي »

* * *

هذا إجمال ماعرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة وقد تخبرته من شيخ قروي عرفهامذ كانت طفلةحتى شبت واختفت من تلك الأماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عيني امرأة وليها وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيمات الصباح في ذلك الوادي ثم تضمحل كأنها لهات طفل على بلور النافذة

٢

جاء خريف سنة ١٩٠٠ فعدت الى بيروت بعد أن صرفت العطلة المدرسية في شمال لبنان، وقبل دخولي المدرسة قضيت أسبوعاً كاملا أتجول مع اترابي في المدينة متمتعين بغبطة الحرية التي تعشقها الشبيبة وتحترمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة، ومثل عصافير رأت أبواب الاقفاص مفتوحة أمامها فصارت تشبع القلب من لذة التنقل وغبطة التغريد . الشبيبة حلم جميل تسترق عذوبته معميات الكتب

وتجعله يقظة قاسية ، فهل يجيء يوم يجمع فيه الحكماء بين أحلام الشبيبة ولذة المعرفة مثلما يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة ؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم والانسانية كتابه والحياة مدرسته ؟ هل يجيء ذلك اليوم؟ لاندرى ولكننا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحى، وذلك الارتقاء هو أدراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال

ففى عشيـة يوم وقد جلست على شرفة النزل أتأمل العراك المستمر في ساحة المدينة واسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمآكل ، اقترب مني صبي ابن خمس يرتدى اطماراً بالية ويحمل على منكبيه طبقاً عليه طاقات الزهور، وبصوت ضعيف يخفضه الذل الموروث والانكسار الاليم قال : « أتشترى زهراً ياسيدى » فنظرت الى وجهه الصغير المصفر ، وتأملت بعينيه المكحولتين بخيالات التعاسة والفاقة، وفمه المفتوح قليلا كأنه جرح عميق في صدر متوجع ، وذراعيـه العاريتين



النحيلتين ، وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنها عصن من الورد الاصفر الذابل بين الاعشاب النضرة — تأملت بكل هذه الاشياء بلمحة مظهراً شفقتي بابتسامات هي أمر من الدموع . تلك الابتسامات التى تنشق من أعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا . ثم ابتعت بعض زهوره وبغيتي ابتياع محادثتــه لانى شعرت بان من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً يستر فصلا من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على مرسح الايام وقل من يهتم بمشاهدتها لانها موجعة، ولما خاطبته بكلمات لطيفة استــأمن واستأنس ونظر الي مستغرباً لانه مثل أترابه الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام من الفتيان الذين ينظرون غالباً الى صبية الازقة كاشياء قذرة لاشأن لها وليس كنفوس صغيرة مكلومة باسهم الدهر . وسألته اذ ذاك قائلا : « ما اسمك » فأجاب وعيناه مطرقتان فى الارض : « اسمي فؤاد » قلت : « ابن من أنت واين أهلك » قال : « أنا ابن مرتا البانية » قلت : « وأين والدك »

فهز رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد فقلت « وأين أمك يا فؤاد » قال : « مريضة فى البيت »

تجرعت مسامعى هذه الـكلمات القليلة من فم الصبي وامتصـتها عواطفى مبتدعة صوراً وأشباحا غريبة محزنة لانى عرفت بلحظة أن مرتا المسكينة التى سمعت حكايتها من ذلك القروي هي الآن ـــفي بيروت ومريضة . تلك الصبية التى كانت بالأمس مستأمنة بين أشجار الاودية هي اليوم فى المدينة تعانى مضض الفقر والاوجاع، تلك اليتيمة التي صرفت شبيبتها على اكف الطبيعـة ترعى البقر فى الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدنية الفاسدة وصارت فريسة بين أظافر التعاسة والشقاء

كنت أفتـكر وأتخيل هذه الاشياء والصبي ينظر الي كأنه رأى بعين نفســه الطاهرة انسحاق قلبي . ولما أراد الانصراف أمسكت بيده قائلا : « سر بي الى أمك لأني أريد أن أراها» فصار أمامي صامتاً متعجباً ومن حين الى آخر كان ينظر الى الوراء ليرى ما اذا كنت بالحقيقة متبعاً خطواته فـار



فى تلك الازقة القــذرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت ، بين تلك المنازل الباليــة حيث يرتكب الاشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة . فى تلك المنعطفات الملتوية الى اليمين والى الشمال التواء الافاعي السوداء كنت أسير بخوف وتهيب وراء صبي له من حداثته ونقاوة قلبه شجاعة لا يشعر بها من كان خبيراً بمكايد أجلاف القوم فى مدينة يدعوها الشرقيون عروس سوريا ودرة تاج السلاطين حتى اذا ما بلغنا أذيال الحي دخل الصبي بيتاً حقيرا لم تبق منه السنون غير جانب متداع ، فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلما اقتربت حتى صرت فى وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الاثاث غير سراج ضعيف يغالب الظلمة بسهام أشعته الصفراء ، وسرير حقير يدل على عوز مبرح وفقر مدقع ، منطرحة عليه امرأة نائمة قد حولت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمي به من مظالم العالم أو كأنها وجدت بين حجارته قلباً أرق وألين من قلوب البشر ، ولما اقترب الصبي منها مناديا يا اماه التفتت اليه فرأته يومىء نحوي فتحركت

إذ ذاك بين اللحف الرثة ، وبصوت موجع يلاحقه ألم النفس والتنهيــدات المرة قالت : « ماذا تريد يارجل هل جئت لتبتاع حياتي الاخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك . اذهب عني فالازقة مشحونة بالنساء اللواتى يبعنك أجسادهن ونفوسهن بأبخس الأثمان . أما أنا فلم يبق لي ما ابيعه غير فضلات أنفاس متقطعة عما قريب يشتريها الموت براحة القبر »

فاقتربت من سريرهــا وقد آلمت كلمــاتها قلبي لأنهــا مختصر حكايتها التعسة وقلت متمنياً لو كانت عواطفى تسيل مع الــكلام « لاتخافى مني يا مرتا فانا لم أجىء اليك كحيوان جائع بل كانسان متوجع . أنا لبناني وقد عشت زمناً فى تلك الاودية والقرى القريبة من غابة الارز . لاتخافى مني يامرتا »

سمعت كلماتي وشعرت بانها صادرة من أعماق نفس تتألم معها فاهتزت على مضجعها مثل القضبان العارية أمام رياح الشتاء ، ووضعت يديها على وجهها كأنها تريد أن



تستر ذاتها من أمام الذكرى الهائلة بحلاوتها المرة بجمالها. وبعد سكينة ممزوجة بالتأوه ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين فرأيت عينين غائرتين محدقتين بشيء غير منظور منتصب في فضاء الغرفة، وشفتين يابستين تحركهما ارتعاشات اليأس ، وعنقاً تتردد فيه حشرجة النزع المصحوبة بأنين عميق متقطع ، وبصوت يبثه الالتماس والاستعطاف ويسترجعه الضعف والألم قالت : « جئت محسناً مشفقاً فلتجزك السماء عني ان كان الاحسان على الخطاة براً والشفقة على المرذولين صلاحاً. ولكني أطلب اليك أن تعود من حيث أتيت لان وقوفك في هذا المكان يكسبك عاراً ومذمة وحنانك علي يثمر لك عيباً ومهانة . ارجع قبل أن يراك أحد في هذه الغرفة الدنسة المملوءة باقذار الخنازير ، وسر مسرعاً ساتراً وجهك باثوابك كيلا يعرفك عابر الطريق. ان الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد اليّ طهارتي ، ولا تمحو عيوبي ، ولا تزيل يد الموت القوية عن قلبي . أنا منفية بحكم تعاستي وذنوبي الى هذه الاعماق المظلمة ، فلا تدع شفقتك تدنيك

من العيوب .. أنا كالابرص الساكن بين القبور فلا تقترب مني لان الجامعة تحسبك دنساً وتقصيك عنها ان فعلت. ارجع الآن ولا تذكر اسمي في تلك الاودية المقدسة لان النعجة الجرباء ينكرها راعيها خوفاً على قطيعه . واذا ذكرتني قل قد ماتت مرتا البانية ولا تقل غير ذلك » ثم أخذت يدي ابنها الصغيرتين وقبلتهما بلهفة وقالت متنهدة : «سوف ينظر الناس الى ولدي بعين السخرية والاحتقار قائلين هذا ثمرة الاثم ، هـذا ابن مرتا الزانية ، هذا ابن العار ، هذا ابن الصدف — سوف يقولون عنه أكثر من ذلك لانهم عميان لا يبصرون وجهلاء لا يدرون بان أمه قد طهرت طفولته باوجاعها ودموعها ، وكفرت عن حياته بتعاستها وشقائها. سوف أموت واتركه يتيماً بين صبيان الازقة ، وحيداً في هذه الحياة القاسية، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله ان كان جباناً خاملاً وتهيج دمه ان كان شجاعاً عادلا ، فان حفظته السماء وشب رجلا قوياً ساعد السماء على الذى جنى عليه وعلى أمه ، وان مات وتملص من شبكة السنين وجدني



مترقبة قدومه هناك حيث النور والراحة »

فقلت وقلبي يوحي الي : « لستِ كالابرص يامرتا وان سكنتِ بين القبور ولستِ دنسة وان وضعتك الحياة بين أيدي الدنسين . أن أدران الجسد لا تلامس النفس النقية والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحية، وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل أن تعطي غلتها : ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر، لان نمل الارض يحملها وطيور السماء تلتقطها فلا تدخل أهراء رب الحقل . أنتِ مظلومة يامرتا وظالمك هو ابن القصور ذو المال الكثير والنفس الصغيرة. أنت مظلومة ومحتقرة وخير للانسان أن يكون مظلوماً من أن يكون ظالماً، واخلق به أن يكون شهيد ضعف الغريزة الترابية من أن يكون قوياً ساحقاً بقابضه زهور الحياة ، مشوهاً باميااله محاسن العواطف . النفس يا مرتا هي حلقة ذهبية مفروط من سلسلة الالوهية فقد تهصر النار الحامية هذه الحلقة وتغير صورتها وتمحو جمال استدارتها لكنها لا تحيل ذهبها الى مادة

أخرى ، بل تزيده لمعاناً . ولكن ويل للهشيم إذ تأتي النار وتلتهمه وتجعله رماداً ثم تهب الرياح وتذريه على وجه الصحراء . إي يامرتا أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبىء في الهيا كل البشرية . قد داستك تلك النعال بقساوة لكنها لم تخف عطرك المتصاعد مع نواح الارامل وصراخ اليتامى وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة. تعزي يامرتا بكونك زهرة مسحوقة ولست قدماً ساحقة »

كنت أتكلم وهي مصغية وقد أنارت التعزية وجهها المصفر مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم ، ثم أومأت إلي أن أجلس على جانب السرير ففعلت مسائلا ملامحها المتكلمة عن مخبآت نفسها الحزينة ، ملامح من عرف أنه مائت . ملامح صبية في ربيع العمر قد شعرت بوقع أقدام الموت حول فراشها البالي. ملامح أمرأة متروكة كانت بالأمس بين أودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وقوة ، فصارت اليوم مهزولة تترقب الانعتاق من قيود الحياة . وبعد سكينة مؤثرة جمعت فضلات قواها وقالت ودموعها تتكلم معها



نفوسها تنبعث مع أنفاسها : « نعم أنا مظلومة . أنا شهيدة الحيوان المختبىء في الانسان . أنا زهرة مسحوقة تحت الاقدام . كنت جالسة على حافة ذلك الينبوع عند ما مر راكباً . . قدخاطبنى بلطف ورقة وقال لى اني جميلة وأنه قد أحبنى فلا يتركنى ، وان البرية مملوءة وحشة والاودية هى مساكن الطيور وبنات آوى . . ثم ألوى علي وضمني إلى صدره وقبلنى ، وكنت لم أذق لتلك الساعة طعم القبلة لأني كنت يتيمة متروكة . . اردفنى خلفه على ظهر الجواد وجاء بي الى بيت جميل منفرد ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمآكل اللذيذة والمشارب الطيبة . . . فعل كل ذلك مبتسماً ساتراً بشاعة أمياله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والاشارات المستحبة . . . وبعد أن أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذل نفسى غادرني تاركاً في أحشائي شعلة حية ملتهبة تغذت من كبدى ونمت بسرعة ثم خرجت الى هذه الظلمة من بين دخان الاوجاع ومرارة العويل . . وهكذا قسمت حياتي إلى شطرين شطر ضعيف متألم وشطر صغير يصرخ في هدوء

الليل طالباً الرجوع الى الفضاء الوسيع . . . في ذلك البيت المنفرد تركنى الظلوم ورضيعي نقاسى مضض الجوع والبرد والوحدة ، لا معين لنا غير البكاء والنحيب ، ولا سمير سوى الخوف والهواجس . . . وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوزي وضعفي فجاء الواحد بعد الآخر وكل يبتغي ابتياع العرض بالمال وأعطاء الخبز لقاء شرف الجسد . . . آه كم قبضت على روحي بيدي لتقديمها للأبدية ، ثم افلتها لأنها لم تكن لي وحدي ، فشريكي بها كان ولدي الذي أبعدته السماء عنها الى هذه الحياة مثلما أقصتنى عن الحياة وألقتنى في أعماق هذه الهاوية . . والآن هو ذا الساعة قد دنت وعريسى الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني الى مضجعه الناعم »

وبعد سكينة عميقة تشابه مس الأرواح المتطايرة رفعت عينيها المحجوبتين بظل المنية وقالت بهدوء : « أيها العدل الخفي ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة ، أنت أنت السامع عويل نفسى المودعة ونداء قلبي المتهامل ، منك



وحدك اطلب ، واليك أتضرع ، فارحمني وادع بيمناك ولدي واستلم بيسراك روحي »

وخارت قواها وضعفت تنهيداتها ونظرت الى ابنها نظرة حزن وحنو ثم ميلت عينيها ببطء وبصوت يكاد يكون سكينة قالت : « أبانا الذي في السموات . . . ليتقدس اسمك . . . ليأت ملكوتك . . . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض . اغفر لنا ذنوبنا »

وانقطع صوتها وبقيت شفتاها متحركة هنيهة وبوقوفهما همدت كل حركة في جسدها . ثم اختلجت وتأوهت وابيض وجهها وفاضت روحها ، وظلت عيناها محدقتين بما لا يرى

***

عند ما جاء الفجر وضعت جثة مرتا البانية في تابوت خشبي وحملت على كتفي فقيرين ودفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة . وقد رفض الكهان الصلاة على بقاياها

ولم يقبلوا أن ترتاح عظامها في الجبانة حيث الصليب يخفر القبور ، ولم يشيعها الى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علمته الشفقة .



يوحنا المجنون

١

في أيام الصيف كان يوحنا يسير كل صباح الى الحقل سائقاً ثيرانه وعجوله ، حاملا محراثه على كتفه ، مصغياً لتغاريد الشحارير وحفيف أوراق الغصون ، وعند الظهيرة كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء ، ويأكل زاده تاركا على الأعشاب ما بقي من الخبز للعصافير ، وفي المساء عند ماينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء كان يعود الى البيت الحقير المشرف على القرى والمزارع في شمال لبنان ويجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغياً لأحاديثهما المملوءة بأخبار الأيام شاعراً بدنو النعاس والراحة معاً

وفي أيام الشتاء كان يتكىء مستدفئاً بقرب النار سامعاً تأوه الارياح وندب العناصر ، مفكراً بكيفية تتابع الفصول

ناظراً من الكوة الصغيرة نحو الاودية المكتسية بالثلوج والاشجار العارية من الأوراق كأنها جماعة من الفقراء تركوا خارجاً بين أظافر البرد القارس والرياح الشديدة

وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والداه ثم يفتح الخزانة الخشبية ويأتي بكتاب العهد الجديد ويقرأ منه سراً على نور مسرجة ضعيفة، متلفتاً بتحذر بين الآونة والاخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لان الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من « نعم الكنيسة » إذا فعلوا .

هكذا صرف يوحنا شبيبته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب وكتاب يسوع المفعم بالنور والروح . وكان سكوتاً كثير التأملات يصغي لاحاديث والديه ولا يجيب بكلمة ، ويلتقي باترابه الفتيان ويجالسهم صامتاً ناظراً إلى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء وإذا ما ذهب إلى الكنيسة عاد مكتئباً لان التعاليم التي يسمعها من على



المنابر والمذابح هى غير التي يقرأها في الانجيل ، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجميلة التي تكلم عنها يسوع الناصري

* * *

جاء الربيع واضمحلت الثلوج فى الحقول والمروج ، وأصبحت بقاياها فى أعالي الجبال تذوب وتسير جداول جداول فى منعطفات الاودية وتجتمع أنهراً غزيرة تتكلم بهديرها عن يقظة الطبيعة ، فازهرت أشجار اللوز والتفاح ، وأورقت قضبان الحور والصفصاف وانبتت الروابي أعشابها وازاهرها فتعب يوحنا من الحياة بجانب المواقد ، وعرف بأن عجوله قد ملت ضيق المرابض ، واشتاقت الى المراعي الخضراء لان مخازن التبن قد شحت وزنابل الشعير قد نفدت . فجاء وحلها من معالفها وسار أمامها الى البرية ساتراً بعباءته كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد ، حتى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادي بقرب حقول الدير القائم كالبرج الهائل بين تلك

الهضاب [1] فتفرقت عجوله مرتعية الاعشاب ، وجلس مستنداً إلى صخرة يتأمل تارة بجمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت السماوات

كان ذلك النهار من أواخر أيام الصوم وسكان تلك القرى المنقطعون عن اللحوم أصبحوا يترقبون بفضلات الصبر مجيء عيد الفصح . أما يوحنا فمثل جميع المزارعين الفقراء لم يكن يفرق بين أيام الصيام وغيرها ، فالعمر كله كان صوماً طويلا عنده . وقوته لم يتجاوز قط الخبز المعجون بعرق الجبين والثمار المبتاعة بدم القلب ، فالانقطاع عن اللحوم والمآكل الشهية كان طبيعياً ، ومشتهيات الصوم لم تكن في جسده بل في عواطفه ، لانها تعيد الى نفسه ذكرى مأساة « ابن البشر » ونهاية حياته على الارض

كانت العصافير ترفرف متناجية حول يوحنا وأسراب الحمام تتطاير مسرعة والزهور تتمايل مع النسيم كأنها تتحمم باشعة الشمس . وهو يقرأ فى كتابه بتمعن ثم يرفع رأسه

(١) هو دير غنى فى شمالى لبنان واسع الاراضى يدعى دير اليشاع النبي يقطنه عشرات من الرهبان المعروفين بالحليين



ويرى قبب الكنائس في المدن والقرى المنثورة على جانبي الوادي ويسمع طنين أجراسها فيغمض عينيه وتسبح نفسه فوق أشلاء الاجيال الى أورشليم القديمة متبعة أقدام يسوع فى الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين : — هنا شفى العميان وأقام المقعدين . وهناك ضفروا له أكليلا من الشوك ووضعوه على رأسه — في هذا الرواق وقف يكلم الجموع بالامثال . وفى ذلك القصر كتفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه — فى هذا الشارع غفر للزانية خطاياها ، وفى ذاك وقع على الارض تحت أثقال صليبه

ومرت الساعة ويوحنا يتألم مع الاله الانسان بالجسد، ويتمجد معه بالروح ، حتى إذا ما انتصف النهار قام من مكانه ونظر حوله فلم ير عجوله فمشى متلفتاً الى كل ناحية مستغرباً اختفاءها فى تلك المروج السهلة . ولما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول انحناء خطوط الكف رأى عن بعد رجلا علابس سوداء واقفاً بين البساتين ، فاسرع نحوه ولما اقترب منه وعرف أنه أحد رهبان الدير حياه باحناء رأسه ثم

سأله قائلا : « هل رأيت عجولا سائرة بين هذه البساتين يا أبتاه » فنظر اليه الراهب متكلفاً اخفاء حنقه وأجاب بخبث « نعم رأيتها فهي هناك ، تعال وانظرها » فسار يوحنا وراء الراهب حتى بلغا الدير ، فاذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالحبال يخفرها أحد الرهبان وفى يده نبوت يجلدها به كيفما تحركت ، واذ هم يوحنا ليقودها أمسك الراهب بعباءته والتفت نحو رواق الدير وصرخ بأعلى صوته « هو ذا الراعي المجرم قد قبضت عليه » فهرول القسس والرهبان من كل ناحية يتقدمهم الرئيس وهو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة أثوابه وانقباض سحنته وأحاطوا بيوحنا كالجنود المتسابقة الى الغنيمة ، فنظر يوحنا الى الرئيس وقال بهدوء « ماذا فعلت لأكون مجرما ولماذا قبضتم علي » فأجابه الرئيس ، وقد بانت القساوة على وجهه الغضوب وبصوت خشن أشبه بصرير المناشير قال قدار تعت عجولك زرع الدير وقضمت قضبان كرومه فقبضنا عليك لأن الراعي هو المسئول عما تخربه مواشيه » فقال يوحنا



مستعطفا « هي بهائم لا عقل لها يا أبتاه ، وأنا فقير لا أملك غير قوى ساعدي ، وهذه العجول ، فاتركني أقودها وأسير واعداً إياك بألا أجيء الى هذه المروج مرة أخرى » فقال الرئيس وقد تقدم قليلا الى الامام ورفع يده نحو السماء : « ان الله قد وضعنا ههنا ، ووكل الينا حماية أراضي مختاره اليشاع العظيم فنحن نحافظ عليها ليلا ونهاراً بكل قوانا لانها مقدسة وهي كالنار تحرق كل من يقترب منها ، فاذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الاعشاب في أجواف عجولك سموما آكلة ، ولكن ليس من سبيل الى الامتناع لأننا نبقي بهائمك في حظيرتنا حتى تفي آخر فلس عليك »

وهم الرئيس بالذهاب فأوقفه يوحنا ، وقال متذللا متوسلا : « أستحلفك ياسيدي بهذه الايام المقدسة التي تألم فيها يسوع وبكت لاحزانها مريم أن تتركني اذهب بعجولي. لا تكن قاسي القلب عليّ فانا فقير مسكين والدير غني عظيم فهو يسامح تهاملي ويرحم شيخوخة والدي » فالتفت اليه الرئيس وقال بهزء : « لا يسامحك الدير بمثقال ذرة أيها الجاهل فقيراً

كنت أم غنياً فلا تستحلفني بالاشياء المقدسة لاننا أعرف منك باسرارها وخفاياها وان شئت أن تقود عجولك من هذه المرابض فافتدها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع » فقال يوحنا بصوت مختنق : « انني لا أملك بارة واحدة ياابتاه . فاشفق عليّ وارحم فقري » فأجاب الرئيس بعد أن مشط لحيته الكثيفة بأصابعه : « اذهب وبع قسما من حقلك وعد بثلاثة دنانير فخير لك أن تدخل السماء بلا حقل من أن تكتسب غضب اليشاع العظيم باحتجاجك أمام مذبحه وتهبط في الآخرة الى الجحيم حيث النار المؤبدة »

فسكت يوحنا دقيقة وقد أبرقت عيناه وانبسط محياه وتبدلت لوائح الاسترحام بملامح القوة والارادة فقال بصوت تمتزج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبيبة : « هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليضيف ثمنه الى خزائن الدير المفعمة بالفضة والذهب ؟ أمن العدل أن يزداد الفقير فقراً ويموت المسكين جوعاً كيما يغفر اليشاع العظيم



ذنوب بهائم جائعة ؟ » فقال الرئيس هازاً رأسه استكباراً: هكذا يقول يسوع المسيح «من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذمنه »

سمع يوحنا هذه الكلمات فاضطرب قلبه في صدره ، وكبرت نفسه ، وتعالت قامته عن ذي قبل ، كأن الارض قد نمت تحت أقدامه ، فانتشل الانجيل من جيبه كما يستل الجندي سيفه للمدافعة ، وصرخ قائلا : « هكذا تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب أيها المراءون. هكذا تستخدمون اقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة ، فويل لكم إذ يأتي (ابن البشر) ثانية ويخرب اديرتكم ويلقي حجارتها فى هذا الوادي محرقاً بالنار مذابحكم ورسومكم وتماثيلكم ، ويل لكم من دماء يسوع الزكية ودموع أمه الطاهرة إذ تنقلب سيلا عليكم وتجرفكم الى أعماق الهاوية . ويل وألف ويل لكم أيها الخاضعون لاصنام مطامعكم ، الساترون بالاثواب السوداء اسوداد مكرهاتكم ، المحركون بالصلاة شفاهكم وقلوبكم جامدة كالصخور ، الراكعون بتذلل أمام المذابح ونفوسكم

متمردة على الله . قد قدتموني بخباثة إلى هذا المكان المملوء بآثامكم ، وكمجرم قبضتم عليّ من أجل قليل من الزرع تستنبته الشمس لي ولكم على السواء . ولما استعطفتكم باسم يسوع واستحلفتكم بايام حزنه واوجاعه استهزأتم بي كأني لم أتكلم بغير الحماقة والجهالة . خذوا وابحثوا في هذا الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع غفوراً . اقرأوا هذه المأساة السماوية واخبروني أين تكلم بغير الرحمة والرأفة . أفي موعظته على الجبل ، أم في تعاليمه في الهيكل أمام مضطهدي تلك الزانية المسكينة ، أم على الجلجلة عند ما بسط ذراعيه على الصليب ليضم الجنس البشري . انظروا ياقساة القلوب إلى هذه المدن والقرى الفقيرة ، ففي منازلها يتلوى المرضى على اسرة الاوجاع ، وفي حبوسها تفنى أيام البائسين ، وأمام أبوابها يتضرع المتسولون ، وعلى طرقها ينام الغرباء ، وفي مقابرها تنوح الارامل واليتامى ، وأنتم ههنا تتمتعون براحة التواني والكسل ، وتتلذذون بثمار الحقول وخمور الكروم : فلم تزوروا مريضاً ، ولم



تفتقدوا سجيناً ، ولم تطعموا جائعاً ، ولم تؤاووا غريباً ، ولم تعزوا حزيناً : وليتكم تكتفون بما لديكم وتقنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم ، فانتم تمدون اياديكم كما تمد الافاعي رؤوسها و تقبضون بشدة على ما وفرته الارملة من عمل يديها وما ابقاه الفلاح لايام شيخوخته »

وسكت يوحنا ريثما استرجع انفاسه ثم رفع رأسه بفخر وقال بهدوء : أنتم كثار ههنا وأنا وحدي افعلوا بي ما شئتم فالذئاب تفترس النعجة فى ظلمة الليل لكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس »

كان يوحنا يتكلم وفى صوته قوة علوية توقف فى أبدان الرهبان الحركة وتثير فى نفوسهم الغيظ والحدة ، ومثل غربان جائعة فى أقفاص ضيقة كانوا يرتجفون غضباً واسنانهم تصرف بشدة مترقبين من رئيسهم اشارة ليمزقوه تمزيقاً ويسحقوه سحقاً ، حتى اذا ما انتهى من كلامه وسكت سكوت العاصفة بعد تكسيرها الاغصان

المتشامخة والانصاب اليابسة ، صرخ الرئيس بهم قائلا : « اقبضوا على هذا المجرم الشقي وانزعوا منه الكتاب وجروه الى حجرة مظلمة من الدير فمن يجدف على مختاري الله لا يغفر له ههنا ولا فى الابدية » فهجم الرهبان على يوحنا هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفاً الى حجرة ضيقة واقفلوا عليه بعد أن انهكوا جسده بخشونة أكفهم ورفس أرجلهم

فى تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنا وقفة منتصر توفق العدو لاسره ، ونظر من الكوة الصغيرة المطلة على الوادي المملوء بنور النهار فتهلل وجهه وشعر بلذة روحية تعانق نفسه وطمأنينة مستعذبة تمتلك عواطفه ، فالحجرة الضيقة لم تسجن غير جسده ، أما نفسه فكانت حرة تتموج مع النسيم بين الطلول والمروج ، وأيدي الرهبان التي آلمت اعضاءه لم تمس عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري . والمرء لا تعذبه الاضطهادات إذا كان عادلاً ولا تفنيه المظالم اذا كان بجانب الحق ، فسقراط شرب السم مبتسماً وبولس



رجم فارحاً . ولـكن هو الضمير الخفي نخالفه فيوجعنا ، ونخونه فيقضي علينا

وعلم والدا يوحنا بما جرى لوحيدهما ، فجاءت أمه الى الدير مستعينة بعصاها ، وترامت على أقدام الرئيس تذرف الدموع وتقبل يديه ليرحم ابنها ويغتفر جهله . فقال لها بعد ان رفع عينيه نحو السماء كمترفع عن العالميات » نحن نغتفر طيش ابنك ونسامح جنونه ، ولـكن للدير حقوقاً مقدسة لابد من استيفائها . نحن نسامح بتواضعنا زلات الناس ، أما اليشاع العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلفون كرومه ويرتعون زرعه » فنظرت اليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيها المتجعدتين بايدي الشيخوخة ثم نزعت قلادة فضية من عنقها ووضعتها في يده قائلة : ليس لدي غير هذه القلادة يا أبتاه فهي عطية والدتي يوم اقتراني فليقبلها الدير كفارة عن ذنوب وحيدي » فأخذ الرئيس القلادة ووضعها في جيبه ثم قال ووالدة يوحنا تقبل يده شكراً وامتناناً « ويل لهذا الجيل فقد انعكست فيه آيات الـكتاب وأصبح الابناء

يأكلون الحصرم والآباء يضرسون . اذهبي أيتها المرأة الصالحة وصلي من أجل ابنك المجنون لتشفيه السماء وتعيد اليه صوابه »

وخرج يوحنا من أسره ومشى ببطء أمام عجوله بجانب أمه المنحنية على عصاها تحت أثقال السنين . ولما بلغ الـكوخ قاد العجول الى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمل باضمحلال نور النهار ، وبعد هنيهة سمع والده يهمس في أذن أمه هذه الـكلمات : « كم عارضتني يا سارة عند ما كنت أقول لك أن ولدنا مختل الشعور : والآن أراك لا تعترضين لان أعماله قد حققت كلامي ، ورئيس الدير الوقور قد قال لك اليوم ما قلته أنا منذ سنين »

وظل يوحنا ناظراً نحو المغرب حيث الغيوم المتلبدة متلونة باشعة الشمس



٢

جاء عيد الفصح وتبدل الانقطاع عن المآكل بالاكثار من المشتهيات ، وكان قد تم بناء الهيكل الجديد المتعالي بين المساكن في مدينة بشراي كصرح أمير قائم بين أكواخ الرعايا . وكان القوم يترقبون قدوم أحد الاساقفة لتكريسه وتقديس مذابحه ، ولما شعروا بدنوه خرجوا صفوفاً صفوفاً على الطرق وادخلوه المدينة بين تهاليل الفتيان وتسابيح الكهنة وأصوات الصنوج وطنين الاجراس والنواقيس ، ولما ترجل عن فرسه المزدانة بالسرج المزركش واللجام الفضي قابله الأئمة والزعماء بمستطاب الكلام مترحبين به بالقصائد والاناشيد المصدرة بالمديح والمذيلة بالتبجيل ، حتى إذا ما بلغ الهيكل الجديد ارتدى الملابس الحبرية الموشاة بالذهب ، ولبس التاج المرصع بالجواهر ، وتقلد عصا الرعاية المنمقة بالنقوش البديعة والحجارة الكريمة وطاف حول الهيكل منغماً مع الكهنة الصلوات والتقاسيم ، وقد تصاعدت

حوله روائح البخور الطيبة وشعشعت الشموع الكثيرة

وكان يوحنا في تلك الساعة واقفاً بين الرعاة والزارعين على رواق مرتفع يتأمل بعينيه الحزينتين هذا المشهد ، ويتنهد بمرارة ويتأوه بغصات موجعة إذ يرى من الجهة الواحدة ملابس حريرية مطرزة واواني ذهبية مرصعة ومباخر ومشاعل فضية ثمينة . ومن الأخرى جماعة من الفقراء والمساكين الذين أتوا من القرى والمزارع الصغيرة ليشاهدوا بهجة هذا الفصح والاحتفال بتكريس الكنيسة . من الجهة الواحدة عظمة ترتدي القطيفة والاطالس . ومن الاخرى تعاسة تلتف بالاطمار البالية . ههنا فئة قوية غنية تمثل الدين بالتنغيم والتعزيم . وهناك شعب ضعيف محتقر يفرح سراً بقيامة يسوع من بين الاموات ويصلي بسكينة هامساً في مسامع الاثير تنهيدات حارة صادرة من أعماق القلوب الكسيرة . ههنا رؤساء وزعماء لهم من سلطتهم حياة أشبه شيء بأشجار السرو ذات الاخضرار الابدي وهناك بؤساء وزراعون لهم من خضوعهم حياة تشابه سفينة ربانها الموت



وقد كسرت الامواج دفتها، ومزقت الرياح شراعها، فامست في هبوط وصعود بين غضب اللجة وهول العاصفة. ههنا الاستبداد القاسي. وهناك الخضوع الاعمى · فايهما كان مولداً للآخر؟ هل الاستبداد شجرة قوية لا تنبت في غير التربة المنخفضة أم هو الخضوع حقل مهجور لا تعيش فيه غير الاشواك؟

بهذه التأملات الاليمة وهذه الافكار المعذبة كان يوحنا مشغولاً وقد بكل زنديه على صدره كأن حنجرته قد ضاقت عن أنفاسه تخاف أن يتمزق صدره حناجر ومنافذ. حتى إذا ما انتهت حفلة التكريس وهم الشعب بالانصراف والتفرق شعر بأن في الهواء روحاً تنتدبه واعظاً عنها، وفي الجموع قوة تحرك روحه وتوقفه خطيباً أمام السماء والارض أسير ارادته فتقدم الى طرف الرواق ورفع عينيه وأشار بيده نحو العلاء وبصوت عظيم يستدعي المسامع ويستوقف النواظر صرخ قائلاً:

« انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة

النور الاعلى. انظر من وراء القبة الزرقاء الى هذه الارض التي لبست بالامس من عناصرها رداءك. انظر أيها الحارث الامين فقد خنقت اشواك الوعر اعناق الزهور التي انعشت بذورها بعرق جبينك. انظر أيها الراعي الصالح، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك. انظر فدماؤك الزكية قد غارت في بطن الارض، ودموعك السخينة قد جفت في قلوب البشر وانفاسك الحارة قد تضعضعت امام رياح الصحراء، واصبح هذا الحقل الذي قدسته قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر الاقوياء ضلوع المنطرحين، وتنتزع اكف الظالمين ارواح الضعفاء... ان صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلمين بتعاليمك فوق المنابر، فالخراف التي بعثتها من أجل كلمة الحياة قد انقلبت كواسر تمزق بانيابها أجنحة الخراف التي ضممتها بذراعيك، وكلمة الحياة التي أنزلتها من صدر الله قد توارت في بطون الكتب



وقام مقامها ضجيج مخيف ترتعد من هوله النفوس : لقد أقاموا يايسوع لمجد اسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج والذهب المذوب ، وتركوا اجساد مختاريك الفقراء عارية في الازقة الباردة ، وملأوا الفضاء بدخان البخور ولهيب الشموع وتركوا بطون المؤمنين بألوهيتك خاليةً من الخبز ، وافعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الارامل . . . تعال ثانية يايسوع الحي واطرد باعة الدين من هيا كلك فقد جعلوها مغائر تتلوى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم . تعال وحاسب هؤلاء القياصرة فقد اغتصبوا من الضعفاء مالهم وما لله . تعال وانظر الكرمة التي غرستها يمينك فقداً كانت جذوعها الديدان وسحقت عناقيدها أقدام ابن السبيل . تعال وانظر الذين ائتمنتهم على السلام فقد انقسموا على ذواتهم وتخاصموا وتحاربوا ولم تكن اشلاء حروبهم غير نفوسنا المحزونة وقلوبنا المضنكة . . . في اعيادهم واحتفالاتهم يرفعون اصواتهم بجسارة قائلين المجد لله في الاعالي وعلى الارض السلام وبالناس المسرة . . فهل

يتمجد أبوك السماوي بان تلفظ اسمه الشفاه الاثيمة والالسنة الكاذبة ؟ وهل على الارض سلام وابناء الشقاء في الحقول يفنون قواهم امام وجه الشمس ليطعموا فم القوي ويملأوا جوف الظالم ؟ وهل بالناس مسرة والبؤساء ينظرون بأعين كسيرة الى الموت نظرة المغلوب الى المنقذ . ما هو السلام يايسوع الحلو ؟ هل هو في اعين الاطفال المتكئين على صدور الامهات الجائعات في المنازل المظلمة الباردة ؟ أم في اجساد المعوزين النائمين على أسرة حجرية يتمنون القوت الذي يرمي به قسس الدير الى خنازيرهم المسمنة ولا يحصلون عليه ؟ ماهي المسرة يايسوع الجميل أبان يشتري الامير بفضلات الفضة قوى الرجال وشرف النساء ، أو بأن نسكت ونبقى عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلمعان ذهب أوسمتهم وبريق حجارة خواتمهم وأطالس ملابسهم . أم بان نصرخ متظلمين منددين فيبعثون الينا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم فتنسحق اجساد نسائنا وصغارنا وتسكر الارض من مجاري دمائنا . . . امدد يدك



يايسوع القوي واحمنا لأن يد الظلوم قوية علينا . أو ارسل الموت ليقودنا إلى القبور حيث ننام براحة مخفورين بظل صليبك إلى ساعة مجيئك الثاني لان الحياة ليست حياة عندنا بل هي ظلمة تتسابق فيها الاشباح الشريرة وواد تدب في جوانبه الثعابين المخيفة . ولا الايام أيام عنـدنا بل هي أسياف سنينة يخفيها الليل بين لحف مضاجعنا ويشهرها الصباح فوق رؤوسنا عندما تقودنا محبة البقاء إلى الحقول .. تراف يايسوع على هـذه الجموع المنضمة باسمك في يوم قيامتك من بين الاموات وارحم ذلهم وضعفهم »

كان يوحنا يناجي السماء والشعب حوله بين مستحسن راض ومستقبح غاضب . فهذا يصرخ : لم يقل غير الحق فهو يتكلم عنا امام السماء لاننا مظلومون . وذا يقول : هو مسكون يتكلم بلسان روح شريرة . وذاك يقول : لم نسمع قط مثل هذا الهذيان من آبائنا وجدودنا ولا نريد أن نسمعه الان . وآخر يهمس في أذن قريبه أحسست بقشعريرة سحرية تهز قلبي في داخلي عندما سمعت صوته فهو يتكلم

بقوة غريبة . وغيره يجيب : نعم ولـكن الرؤساء أعرف منا باحتياجاتنا فمن الخطأ أن نشك بهم

وبينما هذه الاصوات تتصاعد من كل ناحية وتتآلف كهدير الامواج ثم تضيع في الهواء جاء أحد الـكهنة وقبض على يوحنا وأسلمه للشرطة فقادوه الى دار الحاكم، ولما استنطقوه لم يجب بكلمة لانه تذكر أن يسوع كان سكوتاً امام مضطهديه فانزلوه الى سجن مظلم حيث نام بسكينة متكئاً على الحائط الحجرى

وفي صباح النهار التالي جاء والد يوحنا وشهد امام الحاكم بجنون وحيده قائلا : « طالما سمعته يهذي في وحدته ياسيدي ويتكلم عن اشياء غريبة لاحقيقة لها ، فكم سهر الليالي مناجياً السكون بالفاظ مجهولة ، منادياً خيالات الظلمة باصوات مخيفة تقارن تعازيم العرافين المشعوذين . سل فتيان الحي ياسيدي فقد جالسوه وعرفوا انجذاب عاقلته إلى عالم بعيد ، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب ، وإن تكلم جاءت اقواله ملتبسة لاعلاقة لها باحاديثهم . سل أمه فهي ادرى الناس



بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسية فقد شاهدته مرات ناظراً الى الافق باعين زجاجية جامدة وسمعته متكلماً بشغف عن الاشجار والجداول والزهور والنجوم مثلما تتكلم الاطفال عن صغائر الامور . سل رهبان الدير فقد خاصمهم بالامس محتقراً تنسكهم وتعبدهم كافراً بقداسة معيشتهم . وهو مجنون ياسيدي ولكنه شفوق علي وعلى أمه فهو يعولنا في ايام الشيخوخة ويذرف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا ، فترأف عليه برأفتك علينا واغتفر جنونه باعتبارك حنو الوالدين »

أفرج عن يوحنا وشاع في تلك النواحي جنونه فكان الفتيان يذكرونه ساخرين بأقواله والصبايا ينظرون إليه بأعين آسفة قائلات : للسماء شؤون غريبة في الانسان فهي قد جمعت في هذا الفتى بين جمال الوجه واختلال الشعور وقارنت بين أشعة عينيه اللطيفة وظلمة نفسه المريضة

*
* *

بين تلك المروج والروابي الموشاة بالاعشاب والزهور

كان يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرفة عن متاعب ابن آدم بطيب المرعى، وينظر بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتثرة على كتفي الوادي مردداً هذه الكلمات بتنهيدات عميقة : — أنتم كثار وأنا وحدي فقولوا عني ماشئتم وافعلوا بي ماردتم فالذئاب تفترس النعجة فى ظلمة الليل ولكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس

مقدمة تصير خاتمة

— بقلم صاحب جريدة المهاجر —

مقدمات الكتب تكون عادة فى بداية الكتب لا فى نهايتها . أما فى هذا الكتاب فالمقدمة تصير خاتمة لانه لما سألني جبران أفندي خليل جبران مؤلف كتاب عرائس المروج أن أكتب مقدمة لكتابه هذا اشترط عليّ أن اتناسى في الكلام ما بيني وبينه من الصداقة وانظر الى مقدار مافى الكتاب من الفائدة، جاعلا المقدمة بمثابة انتقاد عادل للكتاب لا لكاتبه



فرضيت معه بهذا الشرط وطالعت الروايات الثلاث التي ألف كتابه منها. فأخذت رشاقة اسلوبه بمجامعي وكبرت لدي مقاصده حتى وجدت بدون نظر الى المؤلف على الاطلاق ان كتاباً مثل هذا الكتاب لايجوز أن يقدم عليه شيء ولاجل ذلك هذه المقدمة تصير خاتمة

من الروايات مايكتب لاجل التفكهة فلا يكون لها غرض حي يبقى في ذهن القارئ من بعد قراءتها ، ومنها مايكتب لاجل الفائدة فتحيا مقاصدها في ذهن قارئها وترتسم على صفحة مخيلته المبادئ المقصود تعزيزها بها حتى بعد أن تكون تفاصيل الرواية قد انتسخت من الذهن وزالت

مثال ذلك هذا الكتاب الذي قرأ القارئ الآن فيه ثلاث روايات مختلفة المواضيع والظروف والمقاصد وربما يكون القارئ في هذه الدقيقة قد نسي اشياء كثيرة من تفاصيل كل منها . ربما لو سألناه ان يروي لنا باختصار ماجرى لمرتا البانية أو علي الحسيني لفضل أن ينصحنا بقراءة الكتاب بدلا من ان يشحذ ذاكرته في استعادة ما قد قرأ

لكن ذلك القارئ لايزال من دون شك يتراءى لنفسه في نفسه متكئاً بين خرائب قلعة بعلبك ، حالماً مع علي الحسيني في امور الحب التي تشغل بال كل مخلوق مدة طويلة من الزمن . أو متوجعاً مع مرتا البانية امام سرير المرأة الخالعة التي تلاعب الرجل الخسيس بضعفها وقام من بعد ذلك يتظاهر خبثاً ومكراً بالفضيلة ويمنع شهيدة وحشيته حتى من الحقوق الانسانية . أو لاطماً وجهه جزعاً مع يوحنا بقرب الاديرة التي يملك رهبانها ثلث اراضي جبل لبنان تعديلا ويجبرون اللبنانيين على المهاجرة الى البلاد البعيدة طلباً للمعاش . او متألماً مع جموع جاثية على الركاب باجواف طاوية ومعد خاوية امام بعض رجال الدين الذين لم يتركوا في الارض فضة ولا ذهباً الا حملوها على اكتافهم وزينوا بها مستودعات المعابد أو خزائن الاديرة

وقد يكون قارئ هذا الكتاب شعر بشيء من الغرابة والذهول عند رؤيته نفسه منتقلا فجأة مع المؤلف من عالم الاحلام الجميلة والاوهام التي نستحسنها الا انها غير موجودة



وتضعفنا النفوس الصغيرة عن طلبها فنعتذر عن ذلك بكونها بعيدة — يستغرب القارىء انتقاله مع الكاتب من عالم هذه الاحلام اللطيفة الى عالم الحقائق الموجعة. الى تلك الحقائق التى يرى الانسان اخلاقه وعادات هيئته الاجتماعية الحالية مصورة فيها تصويراً مستقبحاً لانه صحيح. الى تلك الحقائق التى عندما لايجد الانسان العصري مايدفع به آلام جروحها يأخذ بضعف وتقصير يرمي كاتبها المجيد بتهمة الكفر والالحاد — يستغرب القارىء هذا التنقل. ولكن هكذا هي النفس الفاهمة اسرار هذا الوجود تشبه الحمامة الوديعة التى تكون تارة على قمم الجبال وطوراً في اعماق الوادي

ان جبران خليل جبران لم يكتب لنا شيئاً جديداً عندما كتب عن الحب السري المقدس الداخل من حيث لا يُرى الى اعشار قلب نشأ بين مراعي الغنم في صدر بدويٍّ لم تكتحل عيناه بورود خدود النساء، ولا لامست يداه كهربائية اكف الصبايا. ولا قال لنا جبران شيئاً جديداً اذ روى حادثة امرأة اضلها رجل غني من اولئك الاغنياء

بالاجساد الفقراء بالنفوس واسقط نفسها الشريفة من مقامها السامي ثم انقلب بكل لؤم على نفسه يقول أن النساء شياطين خلقن لنا. ولا قال لنا جبران شيئاً جديداً عندما أخبرنا عن رهبان يغتصبون باسم الله وقديسيه نتاج أيدي الفلاحين المساكين وبقايا تنهيدات الارامل وقطرات دموع اليتامى

عرفنا كل ذلك قبل أن نعرف جبران نفسه ولكن من ذا يلوم جبران على عدم اتخاذه موضوعاً جديداً لاسلوبه الجديد. ان كان يوجد من يلومه فنحن نقول له أخطأت ياهذا في ملامك نخفف الملام. سيبقى هذا الموضوع العتيق جديداً ما زالت موحياته في الهيئة الاجتماعية قوية. وتظل الاقلام باكية من أجله حتى تجف دموع الساقطات المظلومات. وتنقرض هذه المدنية الفاسدة وتتبدل شرائعها الناقصة. والذين يتذمرون من أعادة تصوير تعاسة البؤساء عليهم أن يميتوا التعاسة أولاً. ومن لا يريد أن يسمع الشاعر متغزلاً بدعوى كثرة الغزل في ثنيات الكتب عليه ان يقتل تأثير الجمال في القلب البشري. فالمصفور يبقى مغرداً



ماطال الصيف والحزينة تظل باكية حتى مجيء الصباح. ولا تهجع الشفقة في القلب البشري حتى تزول التعاسة من الارض

أما ذلك المجنون يوحنا الذي نعلم من استعدادات أكثرية القوم الذين سيقرأون هذا الكتاب أنه سيرقص بين أحناك العموم دوراً اطول وأعجب من دور مرتا البانية أو علي الحسيني فنعتذر عنه أمام الاكثرية بانه مجنون . وإذا ساء هذا الاعتذار عن يوحنا المسكين تلك الفئة العاقلة من قراء هذا الكتاب نقول لهامع المثل السائر : مجنون يحكي وعاقل يفهم

ان كلام يوحنا المجنون قد ردده (الكفار والملحدون) مراراً كثيرة . أولئك الكفار الذين أحبوا الدين أكثر من أكثر رجال الدين . ولكن كان يوحنا المجنون أفصح جناناً وأبلغ لساناً والطف تعبيراً وأقدر على الاقناع من كل من تقدموه . أنه أرانا الداء الفاشي في الهيئة الاجتماعية باعتبار الدين أرانا وجه الخطأ في طريقة استعمال الدين لا في الدين نفسه الذي يحبه يوحنا المجنون كما يحبه يوحنا العاقل . أرانا ان كلمة الحياة التي انزلها يسوع من فم الله قد توارت

في بطون الكتب وقام مقامها ضجيج الرسل المخيف الذي ترتعد من هوله النفوس . ارانا كيف ان نواب الله على الارض المرسلين لايجاد السلام اصبحوا في اكثر الاحيان رسل الوقيعة والخصام . ارانا كل ذلك بطريقة تظهر عليها ادلة الاقتناع الصادق وبدلا من أن يقدم لنا هذه الحقائق الجارحة على رأس السكين الدامي الذي فصلها به ، قدمها لنا على صفحة نظيفة وصافية . وقال لنا بعد ذلك بسذاجة معنوية : انتم كثار وانا وحدي فافعلوا بي ماشئتم . وقولوا عني ما اردتم . ان الذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل ولكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى مجيء الفجر وتطلع الشمس

فللقارئ اللبيب أن يختار بعد ذلك لنفسه بين أن يكون ذئباً قاتلا النعجة في ظلمة الليل أم راعياً ينظر آثار الدماء بعد مجيء الفجر وطلوع الشمس

واخيراً ـ ما أجمل فكر المؤلف في اتخاذه مراعي المواشي مراسح لرواياته ورعيان الغنم والبقر ابطالا لها وممثلين ـ وكل ذلك في شمالي لبنان الارض التي اكثر من سواها قد نالت



من الضغط والاستبداد، واكثر من سواها يؤمل أن تكون شاعرة بالعناء، واكثر من سواها ستفعل في سبيل التحرر الادبي وانارة باقي النواحي الرازحة تحت اعباء العادات القديمة القبيحة بنور التمدن الحقيق والارتقاء الاجتماعي الصحيح ان اكبر العواطف واجمل الافكار تتولد على اكف الطبيعة في المروج الواسعة الفضاء والطاهرة النقية الهواء.

ولا يقتضي للقارئ اللبيب الا تقليب ذهنه قليلا وبسرعة على صفحة تاريخ هذا العالم حتى يتذكر بكل جلاء ان أسمى الاعمال وأعظمها لم تظهر للناس من سكان القصور الفخيمة بل من رعاة المواشي في الحقول والمروج

فموسى وداود . ومحمد وعنترة . وجان دارك وجوث قد شربوا من خمرة الحقول والمروج قبل أن سكروا واسكروا الناس . وأجمل ما في العهد الجديد أن يسوع المسيح نفسه ولد في مذود البقر والغنم وظهر أولا من دون سائر البشر لرعاة بيت لحم

أمين الغريّب

﴿ تمت ﴾

